

## الباب الأول

### وجوب الإيمان بالقضاء والقدر



الإيمان بالقدر من أصول الإيمان التي لا يتم إيمان العبد إلا بها، ففي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سؤال جبريل عليه السلام للرسول صلى الله عليه وسلم عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال -أي جبريل عليه السلام-: صدقت. والنصوص المخبرة عن قدر الله أو الأمانة بالإيمان بالقدر كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [التكوير: ٤٩]، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الاحزاب: ٢٨]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ لَقَدْ عَلِمَ﴾ [الفرقان: ٢]، وقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَرَهُ فَهَدَى (٣)﴾ [الإسراء: ١-٣].

وروى مسلم في «صحيحه» عن طاووس قال: «أدرکت ناسًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: كلُّ شيء بقدر. قال وسمعت عبد الله بن عمر يقول: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس<sup>(١)</sup> والعجز<sup>(٢)</sup>».

وروى مسلم أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (١٥) ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [التكوير: ٤٨-٤٩]<sup>(٣)</sup>».

(١) الكيس: ضد العجز.

(٢) رواه مسلم في كتاب «القدر» (٤/٢٠٤٥، ٢٦٥٥).

(٣) رواه مسلم في كتاب «القدر» (٤/٢٠٤٦، ٢٦٥٦).

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»<sup>(١)</sup>.

روى أبو داود في «سننه» عن أبي حفصة الشامي قال: قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه لابنه: «يا بني إنك لن تجد طعام حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطئك لم يكن ليصيبك»، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب فقال: يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من مات على غير هذا فليس مني»<sup>(٢)</sup>.

وهذا الذي كتبه القلم هو القدر: لما رواه ابن وهب قال أخبرني عمر بن محمد أن سليمان بن مهران حدثه قال: قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه ادعوا لي ابني لعلي أخبره بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أول شيء خلقه من خلقه القلم، فقال له: اكتب، فقال: يا رب ماذا أكتب؟ قال: القدر»، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فمن لم يؤمن بالقدر أحرقه الله بالنار»<sup>(٣)(٤)</sup>.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: «كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال لي: «يا غلام إني أعلمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فسال الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء

(١) أخرجه مسلم في كتاب «القدر» (٤/٤٤٤، ٢٦٥٣).

(٢) رواه أبو داود في كتاب «السنة باب في القدر» (٤/٢٥٥)، رقم [٤٧٠٠].

(٣) أخرجه ابن وهب في «القدر» (١/١٢١).

(٤) انظر: «شفاء العليل».

لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» (١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» (٢).

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: كل شيء بقدر حتى وضعك يدك على خدك» (٣).

قال الإمام أحمد رحمته الله: «من السنة اللازمة: الإيمان بالقدر خيره وشره والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لم؟ ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان به».

وسئل الشافعي رحمته الله عن القدر فأجاب شعراً قائلاً:

فما شئتَ كان وإن لم أشأ	وما شئتَ إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت	فضي العلم يجري الضى والمُسِين
فمنهم شقي ومنهم سعيد	ومنهم قبيح ومنهم حسن (٤)

والنصوص في ذلك كثيرة جداً فإن النصوص الدالة على علم الله وقدرته ومشيته وخلقه تدل على قدرته تبارك وتعالى فالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله ومشيته وخلقه، يقول الدكتور الأشقر حفظه الله:

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح الجامع».

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) «القضاء والقدر» للأشقر، «معارج القبول» لحافظ حكيمي.

وقد تقاطر أهل العلم على تقرير القدر والنص على وجوب الإيمان به، وما من عالم من علماء أهل السنة الذين هم أعلام الهدى وأنوار الدجى إلا وقد نص على وجوب الإيمان به، وبدع وسفه من أنكره وردّه.

يقول النووي رَحِمَهُ اللهُ في شرحه لأحاديث القدر من صحيح مسلم: «وفي هذه الأحاديث كلها دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنة في إثبات القدر، وأن جميع الوقائع بقضاء الله وقدره خيرها وشرها نفعها وضرها».

وقال في موضع آخر: «تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى».

ويقول ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «مذهب السلف قاطبة أن الأمور كلها يتقدير الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الجن: ٢١] اهـ (١). كل شيء بقضاء وقدر، وهذا معتقد أهل الإسلام، أتباع رسول الهدى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أنه لا يقع شيء في الكون إلا بعلم الله وبإذنه ويتقديره.

قَالَ الرَّبِّيُّ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الجن: ٢٢]، جف القلم، رفعت الصحف، قضي الأمر، كتبت المقادير، ﴿لَنْ يُصِيبَكَ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكَ﴾ [التوبة: ٥١]، «ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطئك لم يكن ليصيبك» (٢).

قَالَ الرَّبِّيُّ: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾ [القدر: ٤٩].

قَالَ الرَّبِّيُّ: ﴿وَلَتَبْلُوَنَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْعُرْبِ وَبَشِيرٍ

الضَّيْرِ﴾ [البقرة: ١٥٥].

(١) «القضاء والقدر» للأشقر.

(٢) صحيح رواه أحمد وأبو داود.

وفي الحديث: «عجبا لأمر المؤمن!! فإن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»<sup>(١)</sup>.

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا سألت فسال الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» [صحيح رواه أحمد والترمذي].

وفي الحديث الصحيح أيضا: «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك» [رواه أحمد وأبو داود].

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «جف القلم يا أبا هريرة بما أنت لاقٍ».

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «احرض على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، ولا تغفل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل».

وفي حديث صحيح عنه صلى الله عليه وسلم: «لا يقضي الله قضاءً للعبد إلا كان خيرا له».

إن هذه العقيدة إذا رسخت في نفسك وقررت في ضميرك صارت البلية عطية، والمحنة منحة، وكل الوقائع جوائز وأوسمة، «ومن يرد الله به خيرا يصيب منه»، فلا يصيبك قلق من مرض أو موت قريب، أو خسارة مالية، أو احتراق بيت، فإن البارئ قد قدر، والقضاء قد حل، والاختيار هكذا، والخيرة لله، والأجر حصل، والذنب كُفِّر.

(١) صحيح رواه مسلم.

هنيئاً لأهل المصائب صبرهم ورضاهم عن الآخذ، المعطي، القابض، الباسط ﴿ لَا يُسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ولن تهدأ أعصابك، وتسكن بلايل نفسك، وتذهب وساوس صدرك؛ حتى تؤمن بالقضاء والقدر، جف القلم بما أنت لاق، فلا تذهب نفسك حسرات، لا تظن أنه كان يوسعك إيقاف الجدار أن ينهار، وحبس الماء الذي ينسكب، ومنع الريح أن تمهب، وحفظ الزجاج أن ينكسر، هذا ليس بصحيح على رغمي ورغمك، وسوف يقع المقدر، وينفذ القضاء، ويحل المكتوب ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [التكوير: ٢٩].

استسلم للقدر قبل أن تطوق بجيش من السخط والتذمُّر والعيول، اعترف بالقضاء قبل أن يدهمك سيل الندم، إذا فليهدأ بالك إذا فعلت الأسباب، وبذلت الحيل، ثم وقع ما كنت تحذر، فهذا هو الذي كان ينبغي أن يقع، ولا تقل: «لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل».

لا تجزع من المصائب، ولا تكثر بالكوارث، ففي الحديث: «إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط» [صحيح رواه الترمذي] (١).

### من فوائد المصائب

استخراج مكنون عبودية الدعاء. قال أحدهم: سبحان من استخراج الدعاء بالبلاء، وذكروا في الأثر: أن الله ابتلى عبداً صالحاً من عباده، وقال للملائكة: لأسمع صوتة. يعني: بالدعاء والإلحاح.

**ومنها:** كسر جراح النفس وعيها؛ لأن الله يقول: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴾ [الأنبياء: ١٧].

**ومنها:** عطف الناس وحبهم ودعاؤهم للمصاب؛ فإن الناس يتضامنون ويتعاطفون مع من أصيب ومن ابتلي.

**ومنها:** صرف ما هو أعظم من تلك المصيبة؛ فإنها صغيرة بالنسبة لأكبر منها، ثم هي كفارة للذنوب والخطايا، وأجرٌ عند الله ومثوية. فإذا علم العبد أن هذه ثمار المصيبة أنس بها وارتاح، ولم ينزعج ويفتظ ﴿إِنَّمَا يُوقِ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [التوبة: ١٠].

**ومنها:** معرفة قدر نعمة العافية؛ فإن النعم لا تُعرف أقدارها إلا بعد فقدها، فلا يعرف نعمة العافية إلا من ذاق مرارة المرض.

### إن الله قد يحيي قلبك بهذا البلاء:

وهذا أمرٌ نشاهده كثيرًا.. فقد يكون العبد بعيدًا عن طاعة الله جَلَّوَعَلَا فإذا سلَّط الله عليه البلاء عاد العبد إلى ربه وقام لينفض غبار الغفلة ويرفع يديه بالدعاء والإنابة والتوبة.. وإذا به يصبح عابدًا صائمًا قائمًا، بل وقد يصبح داعية إلى الله جَلَّوَعَلَا. وقد يحيي الله قلب عبيد يموت عبيد آخر<sup>(١)</sup>.

### يقاظ العبد من غفلته:

فكم من عبيدٍ كان تائهاً شاردًا لم يسجد لله سجدة واحدة وإذا به لما مرض تذكَّر ربه ومولاه فترك الذنوب والمعاصي، وأقبل على ربه بالتوبة والاستغفار والندم على عمره الذي مضى، وفتح صفحة جديدة كلها طاعة لله عَزَّوَجَلَّ.

أخي الحبيب.. إن المرض يريك فقرك وحاجتك إلى الله، وأنه لا غنى عنه طرفة عين، فيتعلق قلبك بالله وتقبل عليه بعد أن كنت غافلًا عنه، فيكون البلاء حينئذٍ خيرًا لك من النعمة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «مصيبة تُقبل بها على الله خير لك من نعمة تنسيك ذكر الله».

(١) «السلسلة الذهبية» للمصري.

## صحة وطهارة القلوب والأرواح:

قال ابن القيم رحمه الله: «انتفاع القلب والروح بالآلام والأمراض أمر لا يحسّ به إلا من فيه حياة، فصحة القلوب والأرواح موقوفة على آلام الأبدان ومشاقها».

وقال في موضع آخر: «لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وأجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقد في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب تكون حامية له من هذه الأدواء، وحفظاً لصحة عبوديته، واستفراعاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحان من يرحم ببلائه ويبتلي بنعمائه كما قيل:

قد ينعم الله بالبدوى وإن عظمت      ويبتلي الله بعض القوم بالنعيم

فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطفوا، ويغوا، وعتوا، والله سبحانه إذا أراد يعبد خيراً سقاه دواء من البلاء والامتحان على قدر حاله يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هدّبه ونقّاه وصفّاه أهله لأشرف مراتب أهل الدنيا وهي عبوديته وأرفع ثواب الآخرة وهو رؤيته وقربه.

## قد يكون الخير كله في هذا المرض:

قال رحمه الله: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٥].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «في هذه الآية عدة حِكَم وأسرار ومصالح للعبد؛ فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب؛ فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد».

ومشهد القضاء: وهي أن تعلم أنه ما آذاك إلا بقضاء من الله وقدر؛ فإن العبد سبب من الأسباب، وأن المقدر والقاضي هو الله، فتسلم وتذعن لمولاك.

وقد حكى ابن أبي الدنيا عن شريح أنه قال: «إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها أربع مرات وأشكره: إذ لم تكن أعظم مما هي، وإذ رزقني الصبر عليها، وإذ وفقني للاسترجاع لما أرجوه فيه من الثواب، وإذ لم يجعلها في ديني».

### إن تعلم بأن المصائب تخلص العبد من الكبر والعجب؛

وليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا ومصائبها، لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وأجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقد في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب، تكون حمية له من هذه الأدواء وحفظاً لصحة عبوديته، واستفرغاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة، فسبحان من يرحم بيلائه، ويتلى بنعائه.

قال ابن القيم: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ مُسْتَغْفِرًا ﴿٧﴾﴾ [التين: ٦-٧].

فمن كمال رحمة الله أن يتلى العبد ليشعر العبد بأنه عبد وأنه يستمد عزته من التذلل لله جلّ وعلا ويستمد قوته من اللجوء والتوكل على الله ويستمد أسباب حياته كلها من افتقاره إلى الملك جلّ وعلا.

### قد يكون الخير كله في تلك المصائب؛

وقال ابن القيم: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴿٢١٦﴾ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال ابن القيم في حديث الإفك: ﴿لَا تَنْسَبُوا شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١١].

سُئِلَ شيخ الإسلام ابن تيمية عن المعصية: هل هي خير للعبد؟ قال: نعم بشرطها من الندم والتوبة، والاستغفار والانكسار.

ذكر بعض أهل العلم: أن الذنب كالجثم على العبد، ومن أسرارها يعد التوبة: قضم ظهر العُجْب، وكثرة الاستغفار والتوبة والإنابة والتَّوَجُّه والانكسار والندامة، ووقوع القضاء والقدر، والتسليم بعبودية مُقَابِلَةَ القضاء والقدر.

**ومنها:** تحقُّق أسماء الله الحسنى وصفاته العلى مثل: الرحيم والغفور والثَّوَاب.

إذن فلا تجزع من الألم، ولا تخف من المعاناة، فربما كانت قوة لك ومتاعاً إلى حين. فالألم ليس مذموماً دائماً، ولا مكروهاً أبداً، فقد يكون خيراً للعبد أن يتألم.

إن الدعاء الحارَّ يأتي مع الألم، والتسبيح الصادق يصاحب الألم.

لَعَمْرُكَ مَا يَبْرِي الْفَتَى كَيْفَ يَتَّقِي نَوَاتِبَ هَذَا التَّهْرَامِ كَيْفَ يَخْذُرُ  
يَرَى الشَّيْءَ مِمَّا يُتَّقَى فَيَخَافُهُ وَمَا لَا يَرَى مِمَّا يَقِي اللَّهُ أَكْبَرُ

كلما ترفَّه الجسم تعقدت الروح، والقِلَّةُ فيها السلامة، والزهد في الدنيا راحة عاجلة يقدمها الله لمن شاء من عباده: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ [مريم: ٤٠].

قال أحدهم:

مَاءٌ وَخَبِزٌ رَوْظُلٌ ذَاكَ النِّعِيمُ الْأَجِلُ  
كَفَرْتُ نِعْمَةَ رَبِّي إِنْ قَالَتْ إِنِّي مُقَلُّ

ما هي الدنيا إلا ماء بارد، وخبز دافئ، وظل وارف!!

**ان تعلم بأن البلاء قد يرفعك في درجات الجنة:**

قال صلى الله عليه وسلم: «إن الرجل ليكون له المنزلة عند الله فما يبلغها بعمل، فلا يزال الله

يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها» (١).

(١) رواه أحمد، وأبو يعلى، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» [٤٣٠٠].

فقد يكون عمالك الصالح لا يبلغك تلك الدرجة في الجنة.. والله عَزَّوَجَلَّ يريد أن يرفعك إلى تلك الدرجة في الجنة فيثليك ليرفع درجتك في الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا أُخْرُجَ على قلب بشر.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال تعالى: إذا ابتليتُ عبداً من عبادي مؤمناً فحمدني وصبر على ما بليته؛ فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا، ويقول الربُّ عَزَّوَجَلَّ للحفظة: إني أنا قيدت عبدي هذا وابتليته، فأجر وانه ما كتتم محجرون له قبل ذلك من الأجر، وهو صحيح» (١).

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدي المؤمن، فلم يشكني إلى عَوْداه أطلقته من إساري، ثم أبدلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، ثم يستأنف العمل» (٢).

### إن تتذكر ما هي البلاء من اللطائف والفوائد:

ومن بين تلك الفوائد التي يجنيها العبد من البلاء: تذكير العبد بذنوبه فربما تاب منها إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

قال بعض السلف: «إن العبد ليمرض فيذكر ذنوبه فيخرج منه مثل رأس الذباب من خشية الله فيغفر له».

هي المقاديرُ فلُمني أو فَنَدِرُ تجري المقاديرُ على غريرِ الإبر

قال ابن القيم في «شفاء العليل»:

فأخبر أن ألم القتل والجراح في سبيله تمحيص، أي: تطهير وتصفية للمؤمنين، وبشر الصابرين على ألم الجوع والخوف والفقر وقصد الأحباب وغيرهم بصلاته ورحمته وهدايته، وقال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

(١) رواه الحاكم، والبيهقي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» [٤٣٠١].

(٢) رواه أبو نعيم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» [٣٩٨٥].

قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله جاءت قاصمة الظهر، وإننا لم نعمل سوءاً، فقال: «يا أبا بكر أأنت تُنصّب؟ أأنت تُحزن؟ أليس يصيبك الأذى؟» قال: بلى، قال: «فذلك مما يحزون به»<sup>(١)</sup>، قال النبي: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾.

[التيجوري: ٣٠]

وفي هذا تبشير وتحذير؛ إذ أعلمنا أن مصائب الدنيا عقوبات لذنوبنا، وهو أرحم من أن يثني العقوبة على عبده بذنب قد عاقبه به في الدنيا، كما قال صلى الله عليه وسلم: «من بُلي بشيء من هذه القادورات فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له. ومن عوقب به في الدنيا فإلهه أكرم من أن يثني العقوبة على عبده»<sup>(٢)</sup>. وفي الحديث: «الحدود كفارات لأهلها»<sup>(٣)</sup>. وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له»<sup>(٤)</sup>. وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: «وما أصاب المؤمن من وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذَى حَتَّى الشُّوْكَ يَشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»<sup>(٥)</sup>. وقال: «لا يزال البلاء بالمؤمن في أهله وماله وولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة»<sup>(٦)</sup>. وفي حديث آخر: «إن المؤمن إذا مرض خرج مثل البردة في صفاتها ولونها»<sup>(٧)</sup>. وفي الحديث الآخر: «إن الحمى تنفي الذنوب كما ينفي الكبر خبث الحديد»<sup>(٨)</sup>. وفي حديث آخر: «لا تُسبِّي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم»<sup>(٩)</sup>. ومن أسماء الحمى: مكفرة الذنوب. وفي الحديث الصحيح: «يقول الله عز وجل يوم القيامة:

(١) صحيح أخرجه الحاكم في «المستدرک» (١٨٩/٧) حديث رقم (٢٩٢٦).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٨٢٥/٢) حديث رقم (١٥٠٨).

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

(٦) إسناده صحيح، أخرجه ابن حبان في «صحيحه».

(٧) إسناده ضعيف، أخرجه الترمذي.

(٨) أخرجه ابن ماجه.

(٩) صحيح، وأخرجه مسلم.

عبيدي مرضت فلم تعديني. قال: كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: مرض عبيدي فلان فلم تعده. أما لو عدته لوجدتني عنده»<sup>(١)</sup>.

وهذا أبلغ من قوله في الإطعام والإسقاء: «لوجدت ذلك عندي»، فهو سبحانه عند المبتلى بالمرض رحمة منه له وخيراً وقرئاً منه لكسر قلبه بالمرض؛ فإنه عند المنكسرة قلوبهم. وهذا أكبر من أن يذكر ورب الدنيا والآخرة واحد، وحكمته ورحمته في الدنيا والآخرة بل ظهور رحمته في الآخرة أعظم. فعذاب المؤمنين بالنار في الآخرة هو من هذا الباب، كعذابهم في الدنيا بالمصائب والحدود، وكذلك حبسهم بين الجنة والنار حتى يهدبوا وينقوا. وقد علم بالنصوص الصحيحة الصريحة أن عذابهم في النار متفاوت قدرًا ووقتًا بحسب ذنوبهم، وأنهم لا يخرجون منها جملة واحدة بل شيئاً بعد شيء حتى يبقى رجل هو آخرهم خروجاً، وكذلك عذاب الكفار فيها متفاوت تفاوتاً عظيماً، فالناقون في دركها الأسفل، وأبو طالب أخف أهلها عذاباً في ضحضاح من نار يغلي منه دماغه، وآل فرعون في أشد العذاب، قالوا: فإذا كان العذاب في الدار التي فيها رحمة واحدة من مائة رحمة هو رحمة بأهلها ومصالحة لهم ولطف بهم في الدار التي يظهر فيها مائة رحمة كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض. وقد قال تعالى: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ [النجم: ٤١].

فأخبر أنه يعذبهم رحمة بهم ليردهم العذاب إليه كما يعذب الأب الشفيق ولده إذا فر منه إلى عدوه ليرجع إلى بره وكرامته، وقال الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [التوبة: ١٤٧] اهـ.

(١) صحيح، وأخرجه مسلم.

## الإيمان بالقضاء والقدر وأثره في السلوك

إن الإيمان هو النعمة العظيمة التي إذا وهبها الله عبداً من عباده يسّر له بها سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة، فإذا ضاقت عليه الدنيا وأحاط به أعداؤه وأعداء دينه من كل جانب، وجد في هذا الضيق أوسع السعة.

فالإيمان - والإيمان بالقضاء والقدر خصوصاً - من أعظم أسباب النعمة التي يوسع الله عزّ وجلّ بها على المؤمنين الضيق ويهون عليهم كل مصيبة ويحميهم من أمراض الأسى والحزن؛ وذلك لأن المؤمن يستشعر قوته بالله عزّ وجلّ حين يستحضر أن القوة لله جميعاً، وأن الأمر أمره، وأنه خالق كل شيء، وأنه خلق كل شيء بقدره، وبذلك يتغير سلوكه في معاملة الواقع تغيراً جذرياً<sup>(١)</sup>.



(١) «الإيمان بالقضاء والقدر» د/ ياسر برهامي.